المحاضرة الثالثة:

مولده صلى الله عليه وسلم وأهم الأحداث قبل النبوة

أولا: الأحداث التاريخية

1. نسبه الشريف ﷺ:

هو: ((مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ)) رواه البخاري.

نسب رسول الله ﷺ من أشرف الأنساب وقد تحدث عن نبل أصله فقال: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" رواه مسلم.

اختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب، وهي يومئذ تعدّ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة فمات بها، (وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام)، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة.

2. مولده ﷺ:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشُعَبِ بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، يوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة 571م .

روى ابن سعد أن أمّ رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام .

وقد روي من الإرهاصات (العلامات) أنه: سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس.

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له. واختار له اسم "**محمّد**" . وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب . وخَتَنَه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون، وعقّ عنه بكبش.

وأول من أرضعته من المراضع – بعد أمه ﷺ بأسبوع – ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب.

3. رضاعه ﷺ في بني سعد

كانت عادة العرب — الحَضَر– استرضاع الأولاد، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بني سعد، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب، (وزوجها الحارث بن عبد العزى). وكانت بادية بني سعد تعاني سنة مجذبة، جف فيها الضرع ويبس الزرع فما إن استكان الى حجرها وثديها حتى عادت منازل حليمة مخضرة، تروح أغنامها شباعا ممتلئة الضرع.

قال ابن إسحاق: روت مرضعته حليمة السعدية أنه ﷺ: كان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرا (تام النمو) قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا.

4. حادثة شق الصدر:

بقي رسول الله ﷺ في بني سعد، حتى إذا كانت السنة الرابعة (أو الخامسة) من مولده وقع حادث شق صدره، كما روى مسلم في صحيحه عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج

القلب، فاستخرج منه علقة، فقال : (**هذا حظ الشيطان منك**)، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه[1] ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعنى حليمة) فقالوا : إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون (أي متغير اللون). فخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة فردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين .

خرجت آمنة لزيارة قبر زوجها بيثرب، ومعها ولدها اليتيم محمد ﷺ وخادمتها أم أيمن وقيّمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا ثم رجعت، وفي طريقها لاحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بمكان يسمى الأبْوَاء بين مكة والمدينة .

وعاد به جده عبد المطلب إلى مكة، و مشاعر الحزن تغمره ، فَرَقَّ له وكان يؤثره على أولاده، ويقول للقوم إذا أخروه: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأنًا. ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه .

نهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله حتى توفي.

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَى من أرض الشام، وكان في هذا البلد راهب عرف بَبحِيرى، واسمه: جرجيس (وكان عليما بالإنجيل) فلما رأى محمد ﷺ أخذ بيده وقال: (هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين). فقال له أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.

5. حرب الفِجَار[2]

ولخمس عشرة من عمره ﷺ وقعت حرب بين قريش – ومعهم كنانة – وبين قَيْس عَيْلان.

وسببها: أن أحدا بني كنانة اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، فثار الطرفان، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح فاصطلحوا وانتهت الحرب.

وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أي يجهز لهم النبل للرمي.

6. حلف الفضول

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذى القعدة في شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش، فاجتمعوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة:((**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ**)). رواه البيهقي في السنن الكبرى.

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنمًا، رعاها في بني سعد، وفي مكة لأهلها على قراريط (أي دنانير زهيدة). وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرًا إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها.

7. زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة

---

1 أي جمعه وضم بعضه إلى بعض.

2 الفِجار (من المفاجرة) : وسميت كذلك لانتهاك حرمة الشهر الحرام، ووقوعها في الحَرَم.

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من الشمائل الكريمة، والخصال الرفيعة والأمانة.. فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة، وقد سمع رسول الله بذلك فكلم أعمامه فخطبوها له وتم على إثر ذلك الزواج بينهما، وكان ذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين .

8. بناء الكعبة وقضية التحكيم

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش بإعادة بناء الكعبة؛ وذلك لما وقع فيها من الصدع، ومخافة انهيار جدرانها جراء سيل جرف مكة. واتفقوا على ألا يدخلوا في بنائها إلا طيبًا، وهكذا شارك معهم رسول الله ﷺ وكان يحمل الحجارة على كتفه. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فطلب رداء ووضع الحجر في وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، فرضى به القوم.

ثانيا: العبر والعظات (الفوائد):

يؤخذ من هذا المقطع من السيرة النبوية فوائد وعظات هامة نجملها فيما يلي:

1. في ذكر نسبه الشريف ﷺ دلالة واضحة على أن الله تعالى ميّز العرب على سائر الناس، وفضّل قريشا على سائر القبائل الأخرى، جاء في الحديث" "**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**". رواه الترمذي
2. ولد رسول الله يتيم الأب وتربى يتيم الأبوين وهذا أكمل اليتم، وهذه حكمة الله وقضاؤه ولعلّ من فوائدها:
   أ. أن لا يتهم بأنه ورث النبوة أو العلم عن أبيه أو جده أو أمه..
   ب. أن يعتمد على نفسه من صغره ولا يتكل على غيره.
   ج. حياة اليتم فيها إحساس بكل مسكين أو فقير أو ذي حاجة..
   د. تولته العناية الإلاهية واختارت له حياة الكدح والزهد بدل حياة المال والجاه.
3. قال تعالى:" **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**" ومن فيض تلك الرحمة ما نزل على منازل حليمة السعدية من الاخضرار والخير للأرض والبهائم.. وكلها كرامات وبركات تدل على رفعة وعلو شأن هذا النبي وهو في سن الطفولة.
4. **إرهاصات النبوة: منها ما وقع عند الميلاد:** كسقوط شرف إيوان كسرى، وانخماد نار المجوس، وخروج النور الذي أضاء الشام..**ومنها: حادثة شق الصدر**: التي هي تهيئة أولية لهذا القلب الذي سيحمل عبء الرسالة الخاتمة وتطهير معنوي لما يصيب القلوب من الأدران. **ومنها قصة الراهب بحيرا:** وما فيها من سجود الشجر والحجر وظل الغمامة.
5. تدل قصة بحيرا الراهب أن أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) كانوا يعرفون محمدا ﷺ وأنه قد جاء ذكره بأوصافه في التوراة والإنجيل وخبر بعثه في آخر الزمان، وإنما منع الكثير منهم الإيمان به الحسد والكبر قال تعالى:" **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146)**" البقرة
6. اختار الله لنبيه حياة الكدح والكسب والتجارة حتى يعتمد على جهده الشخصي ولا يتكل على أحد من الناس لما يكون في ذلك من المنّة والفضل، فيعوقه عن الصدع بكلمة الحق.

7. رغم هذه الإرهاصات الظاهرة فإن النبي ﷺ كان يتمتع بخصائصه البشرية كلها، فقد تربى كما يتربى الأولاد فرضع الحليب وفطم ولعب مع الغلمان ووجد في نفسه من الدوافع الغريزية والميولات الفطرية ما يجده كل الشباب. وهذا كله لحكمة مفادها: تسهيل وتحظير القلوب للإيمان برسالته وأنه بشر لا يملك لنفسه ضرا لا نفعا إلا ما كان من رحمة الله ووحيه.

8. ومع هذه البشرية تدخلت العناية الإلاهية في تربية ونشأة هذا النبي الخاتم، فعصمته من كل مظاهر الانحراف التي من شأنها أن تقدح في شخصيته الرسالية، ومن ذلك: أنه لم يسجد لصنم، ولم يدخل في يهودية أو نصرانية، ولم يأكل مما ذبح على الأصنام، ونهي عن الوأد، ومنع من سماع الغناء والدفوف، ولم يلعب الميسر ولم يشرب الخمر على انتشارها، وكان يكره أن تكشف له عورةﷺ.

9. مشاركة الرسول ﷺ في القتال مع بني عمومته في حرب الفجار دليل على إقدامه وشجاعته وحرصه على تعلم أساليب القتال.

10. مشاركة النبي ﷺ في حلف الفضول دليل على أن العدل قيمة مطلقة كما أن الظلم مرفوض بكل صوره.

11. خديجة رضي الله عنها هي أول زوج لرسول الله ﷺ وكانت امرأة شريفة تلقب بالعفيفة الطاهرة، وكانت لها مكانة عظيمة عند رسول الله حتى ماتت، قال رسول الله ﷺ في حقّها: إني رزقت حبّها" متفق عليه، وقال أيضا: «.. **لا والله مَا أَبْدَلَنِي اللهُ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، صَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ إِذْ لَمْ يَرْزُقْنِي مِنْ غَيْرِهَا**». رواه الطبراني. وفي هذا دليل على حب الزوج لزوجته الصالحة والوفاء المستمر.

12. في مبادرة خديجة رضي الله عنها للزواج بمحمد ﷺ – رغم أن الرجال كانوا يخطبونها فتردهم– دليل على أنها اختارت الرجل المتميز ذو الخصال الرفيعة كالأمانة و الصدق والشجاعة وحسن التجارة.. وكذلك تكون المرأة المسلمة تقبل بالرجل ذو الأخلاق والدين.

13. أنجبت خديجة كل أولاده ﷺ سوى إبراهيم فهم: القاسم (وهو الأول وبه كان يكنى)، ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله (وكان يلقب بالطاهر والطيب). مات بنوه الذكور كلهم في صغرهم، أما البنات فأدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ إلا فاطمة فقد ماتت بعده بستة أشهر.

14. تجديد قريش لبناء الكعبة وتعاونهم فيها ومشاركة النبي ﷺ فيها تدل على شرف هذا البيت وقداسته وأنه رمز وحدة العرب والمسلمين قال تعالى "**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**" البقرة/ 125

15. اختلافهم على حمل الحجر الأسود حتى وصلوا حد التقاتل دليل على شرفه وأنهم كانوا يعظمون شعائر الحرم.

16. كما أن مشاركته في أشغاله إعادة بناء الكعبة دليل على روحه الجماعية وشخصيته الإيجابية.

17. تظهر عبقرية محمد ﷺ وذكائه وفطنته من خلال الحل الوسط الذي أبداه عند الخلاف حول وضع الحجر الأسود، كما أن الإجماع على تحكيمه والاجتماع على رأيه دليل على علو منزلته وقدره بين رجال قريش.